ملوك الطوائف يعودون في كتاب «رقصة الحياة»

أحمد مروان

القاهرة – يقدم محمد السيد إسماعيل، في نصه المسرحي "رقصة الحياة وزيارة ابن حزم الأخيرة" تجربة أدبية، يستلهم فيها الماضي ليدمجه بالحاضر في رؤية استشرافية تُلجِ إلى أن التاريخ يعيد نفسه.

وفي زيارة ابن حزم الأخيرة، الزمن هو زمن ملوك الطوائف، حيث يدور حوار بين ثلاثة من كبار علماء المسلمين في الأندلس، ويكون الانهيار الوشيك للحكم الإسلامي في الأندلس، ويدور حوار بين كل من ابن حزم صاحب "طوق الحمامة"، وابن شهيد صاحب "التوابع والزوابع" وابن حيان المؤرخ.

ويأتي هؤلاء الثلاثة في رحلة من العالم الآخر إلى العصر الحالي، يستكشفون ما حدث فيجدون في الظاهر أنه لا شيء قد تغيّر؛ فالزمان زمان هزيمة، إذ بدأ الانهيار الإسلامي في الأندلس وتربّص الفرنجة بالعرب في كل مكان "وقد بلغ كل شيء ذروته، خطر الفرنجة، الحرب الأهلية الوشيكة"، لنقرأ "أولا تدري بعدُ أن هذا الملك، وتضرب بيدها على الكرسي، أصبح مثل لعبة الكراسي الموسيقية.. من يسرع أكثر يصل إليه".

> أخبار الملوك هي السطح الظاهر؛ الجلد المترهل والمتشقق، أما أخبار الناس فهي الدم الدافق

إنه إذن زمان الانهيار، ومع ذلك فكل شيء يتغير رغم المقولة اليائسة إن شيئا لا يتغير. يؤمن ابن حزم بفلسفة للتاريخ ومنهج يختلف جذريا مع ابن حيان فصاحب "طوق الحمامة" يرى "أن أخبار الملوك هي السطح الظاهر؛ الجلد المترهل والمتشقق، أما أخبار الناس فهي الدم الدافق".

وفي مقدمتها للكتاب، تقول الناقدة فريدة النقاش "يجلس القادمون من عمق التاريخ على مقهى شعبي كبير في مدينة عربية معاصرة ويتحدثون إلى المارة العاديين، ويسمعون حكايات ركود صناعة البناء بما تحمله من دلالة، ويحكي لهم ماسح الأحذية حكايات ميسور البناء. ويفتح صاحب المقهى جهاز التلفزيون الذي يعرض صورا لأحداث يناير.

ويختلف ابن حزم مع ابن حيان حول الطريقة التي يواجه بها كل منهما الواقع الفاسد، يدعوه ابن حيان للمناورة فيرد ابن حزم "أي أننا ينبغي أن ننتظر المكان الآمن والزمان الآمن، وهذا معناه أننا لن نقول الحق أبدا".

ويقول البطل إبراهيم لزوجته نشوى "في هذا الليل، الليل الممتد طويلا منذ مئات الأعوام سوف يعودون، إني أبصرهم، إني أبصر ريحا طيبة تأتي لتزف إليك بشارة أيام قادمة بيضاء".

يمنح ابن حزم مفتاحا للنص يمكن أن يبني عليه كل من المخرج والناقد والقارئ حين يقول عن التشابه بين عصرين "لقد تشابهت أوطان بكاملها فكيف لا تتشابه حكايات الأشخاص"، كذلك تتشابه الوقائع ففي العصرين امتلأت السجون عن آخرها حيث لا يوجد مكان لابن شهيد في السجن.

ويلتقي العلماء الثلاثة بشخصية عصرية هي إبراهيم، وهو نفس الاسم لبطل رقصة الحياة، المسجون منذ عشر سنوات دون أن يعرف سببا لسجنه، ويلتقون أيضا بعيسى الخولاني الذي سبق أن عرفوه منذ عشرة قرون "لقد تاجر بكل شيء حتى شرف نسائه كي يقترب من السلطة".

والفساد هو الفساد في كل زمان ومكان، وهؤلاء الذين تورطوا فيه واثقون أنه بعد سقوطهم "لا شيء في هذا البلد يبقى على حاله"، وهي رؤية تختلف تماما مع القول إن شيئا لم يتغير، بل تتغير الأسماء والأقنعة، إذ أن كل شيء يتغير حتى مع تشابه الظروف والوقائع والحكايات. كذلك فإن المعركة لم تنته بعد، بل إن المعركة تبدأ كل يوم، إذ يتواجه زمنان، الزمن المعاصر سجن، والزمن القديم حكم يتهاوى.

وكتاب "رقصة الحياة وزيارة ابن حزم الأخيرة" لمؤلفه محمد السيد إسماعيل، صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

المسرح الوطني اللبناني يكرّم فاروق الفيشاوي

صور (لبنان) – أعلنت جمعية تيرو للفنون وإدارة مسرح إسطنبولي عن إقامة أسبوع أفلام تحية للفنان المصري الراحل فاروق الفيشاوي، وذلك في المسرح الوطني اللبناني بمدينة صور، حيث أعلن الممثل والمخرج قاسم إسطنبولي مؤسس المسرح الوطني اللبناني عن عرض مجموعة أفلام سينمائية من روائع أعمال الفيشاوي، وهي فيلم "الجاسوسة حكمت فهمي" (إنتاج 1994)، وشاركت في بطولته نادية الجندي، ومن إخراج حسام الدين مصطفى، وفيلم "الطوفان" (1985)، من إخراج بشير الديك، كذلك فيلم "قضية عم أحمد" مع فريد شوقي، (1985)، إخراج علي رضا، وفيلم "المشبوه" مع عادل إمام عام (1981)، من إخراج سمير سيف، وفيلم "ألوان السما السبعة" مع ليلى علوي (2007)، من إخراج سعد هنداوي، وستعرض الأفلام بالمجان للجمهور ابتداء من 10 وإلى غاية 12 أغسطس الجاري في المسرح الوطني اللبناني بمدينة صور.

وولد الفنان فاروق الفيشاوي بإحدى قرى مركز سرس الليان بمحافظة المنوفية في مصر في 5 فبراير عام 1952، وبعد حصوله على ليسانس الآداب بجامعة عين شمس التحق بالمعهد العالي للفنون المسرحية حيث حصل على البكالوريوس. وبدأ حياته الفنية من خلال أدوار صغيرة في عدة مسلسلات ثم كانت انطلاقته الكبيرة عام 1980 عندما شارك في مسلسل "أبنائي الأعزاء شكرا" من إخراج محمد فاضل، ثم عرف أدوار البطولة بعد دوره في فيلم "المشبوه".

ويعتبر الراحل من أغزر النجوم عملا في ثمانينات وتسعينات القرن العشرين، وقام بأداء أدوار كثيرة متباينة، حيث جسد دور الملك فاروق ودور شحات وأدوارا عديدة مهمة.

وحصد الفيشاوي الكثير من الجوائز طيلة مسيرته وكان الوجه الأبرز في افتتاح أغلب المهرجانات الفنية العربية، ففي 2007 حاز على جائزة المجلس القومي لحقوق الإنسان لأفضل الأعمال الفنية والإعلامية، وفي عام 2009 حصل على جائزة أفضل ممثل من الأكاديمية الأفريقية السينمائية عن فيلم "ألوان السما السبعة"، ودرع الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي من الملتقى العربي الرابع للمنتجين العرب، وآخر جوائزه كانت في فبراير 2019، حيث حصل فاروق الفيشاوي على جائزة الريادة السينمائية من مهرجان المركز الكاثوليكي للسينما في دورته الـ67.

أما آخر أعماله الفنية فكانت مشاركته في مسرحية "الملك لير"، مع النجم يحيى الفخراني. وتوفي الفنان فاروق الفيشاوي في 25 يوليو الماضي، متأثرا بغيبوبة كبدية بعد صراعه مع مرض السرطان.

العمارة هو لغة/ علامة (لوحة للفنان عبدالحميد الثابوتي)

خطاب الأزمة وعلاقة بنية اللغة بهوية الأنثى

النظام الرمزي لا يعني فقط النصوص المكتوبة، إنما يشمل كل ما يمكن أن يوضع تحت مظلة العلامة

إذا كانت الهوية هي "السردية التي نرويها عن أنفسنا"، كما يقول ناقد ثقافي بريطاني، فهذا يمكّننا من تأكيد أن معرفة كيف تشكلت هذه الهوية مرهونة بالضرورة بتحليل بنية اللغة التي نسجت منها وبها هذه السردية في هذه الثقافة أو تلك الثقافة الأخرى، وأكثر من ذلك فإن عملية التحليل هذه لا تستقيم دون الكشف عن تضاريس تاريخ وانتماء سارد تلك القصة وخاصة موقعه أو موقعها الاجتماعي والظروف المحاطة به أو بها، ودون سبر العلاقة المتبادلة بين اللغة وبين بناء الشخصية سواء كانت ذكرا أو أنثى.

أزراج عمر
كاتب جزائري

لا شك أن نقاد الثقافة قد اعتبروا اللغة مكونا أساسيا للهوية مما أدى بأحدهم إلى الجزم بأن المرأة، مثلا، لا توجد خارج السجل الرمزي. على أساس هذا فإن إدراك تاريخية تراتبية الاختلاف الجنسي في المجتمع غير ممكن دون تشريح الأسباب المادية والثقافية (اللغة جزء محوري من الثقافة طبعا) المنتجة والمكرسة للهيمنة الذكورية.

وفي هذا السياق نجد الناقد المصري نصر حامد أبوزيد قد خصّص جزءا مهما من كتابه "دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة" لتحليل علاقة اللغة بهويّة المرأة في بلداننا، وفي هذا الخصوص قام أبوزيد برحلة استكشاف داخل تضاريس متون التراث الثقافي والفكري العربي-الإسلامي واستنتج بعض النتائج المهمة وفي مقدمتها أن إدراك التمثلات المكرسة للمرأة في مجتمعاتنا مشروط بتحليل بنيات الخطابات السياسية والعقائدية، والاجتماعية، والدينية في تلك المجتمعات.

فهو يبرز أيضا أن تفكيك نص الطبري، مثلا، هو تفكيك لبنية اللغة كحامل لخطاب أسطوري ذكوري حول المرأة، ولا شكّ أن تحليل اللغة الذي قام به أبوزيد يعني أن أوضاع المرأة ووجودها ككيان هما من تشكيل الخطابات الثقافية/اللغوية والشروط المادية معا.

معاصرة رؤية أبوزيد

من الملفت للنظر هنا أن نصر حامد أبوزيد يتميز برؤية معاصرة حيث يلتقي توجهه النقدي مع أحدث النظريات الفكرية التي وظفها منظرون بارزون، أمثال ميشال فوكو وإدوارد سعيد لتحليل الدور الذي تلعبه منظومة السجل الرمزي في إنتاج الذوات والقوة معا وباعتبارها سلسلة الدوال التي تصنع جزئيا هذا الشكل أو ذاك الشكل من هوية هذا الذكر أو هذه الأنثى أو تلك.

ويبدو واضحا أن معاصرة نصر حامد أبوزيد تظهر في كونه استثمر المنظورات الفكرية التي تتجاوز تحليل الوقائع والوثائق إلى تفكيك للخطاب/القوة، وفي هذا الخصوص بالذات نجد الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو في كتابه "تاريخ الجنسانية" قد قدم مسحا نظريا للأطوار التي أنتجت أنماط التمثلات للمرأة الأوروبية، ودور اللغة في ذلك.

وفي هذا الشأن كتب أبوزيد قائلا "فرضت الرعوية المسيحية كواجب أساسي مهمة إدخال كل ما له صلة بالجنس في طاحونة الكلام التي لا حدود لها، فمنع بعض الكلمات، والالتزام بنظافة العبارات، وكل الرقابة الممارسة على المفردات قد لا تكون سوى تدابير ثانوية بالنسبة إلى هذا الإخضاع الكبير، وسوى طرق لجعل الإخضاع مقبولا من الناحية الأخلاقية ومنتجا من الناحية التقنية".

وفي الواقع فإنّ نصر حامد أبوزيد يشدّد على مركزية اللغة ودورها في إنتاج الفوارق بين الأعراق، وكذلك بين الذكر والأنثى، وهكذا يلاحظ أن "للخطاب العربي المعاصر جذوره في بنية اللغة العربية ذاتها، من حيث هي لغة تصر على التفرقة بين الاسم العربي وجذوره في بنية اللغة العربية ذاتها، من حيث هي لغة تصر على التفرقة بين الاسم العربي والاسم الأعجمي بعلامة يطلق عليها في علم اللغة 'التنوين' أو 'التصريف' وهو 'نون' صوتية تلحق آخر الأسماء العربية على مستوى النطق لا على مستوى الكتابة".

ويضيف موضحا أكثر أن "هذا التمييز بين العربي وغير العربي على مستوى بنية اللغة وعلى مستوى دلالتها ينبع منه تمييز آخر بين 'المذكر' و'المؤنث'، وهو تمييز يجعل من الاسم العربي المؤنث مساويا للاسم الأعجمي من حيث القيمة التصنيفية. فبالإضافة إلى تاء التأنيث التي تميز بين المذكر والمؤنث على مستوى البنية الصرفية، يمنع التنوين عن اسم العلم المؤنث كما يمنع عن الاسم الأعجمي".

هذا ويستنتج أبوزيد أن البنية اللغوية الصرفية "تمارس نوعا من الطائفية العنصرية لا ضد الأغيار فقط"، بل ضد الأنثى من الجنس نفسه كذلك، وهذا في تقديره أمر له امتدادات على مستوى الخطاب السائد المعاصر حيث تعامل المرأة معاملة "الأقليات" من حيث الإصرار على حاجتها للدخول تحت "حماية" أو "نفوذ" الرجل.

ومن جهة أخرى يلاحظ أبوزيد أن بنية اللغة العربية لا مجال فيها لما "يسمى الأسماء المحايدة"، أي الأسماء التي ليست مذكرة أو مؤنثة كما هو الأمر في بعض اللغات الأجنبية.

توسيع مفهوم الخطاب

إن تحليلات نصر حامد أبوزيد لبنية اللغة في التراث العربي الإسلامي وإبرازه للخطاب اللغوي كخطاب منتج للهيمنة الذكورية ولتبعية المرأة ذات أهمية دون أدنى شك، ولكنني أسجل بعض الملاحظات النقدية التالية، وهي أن مفهوم خطاب اللغة عند نصر حامد أبوزيد ضيق أحيانا، لأنه محصور عنده غالبا في البنية النحوية والصرفية، والصحيح في تقديري هو أن النظام الرمزي يتجاوز نطاق النحو والصرف ليشمل أبنية الوعي واللاوعي الثقافيين السائدين في هذه المرحلة التاريخية أو تلك المرحلة التاريخية الأخرى. ولذلك فإن دراسة الأنظمة المدعوة بالأنساق الرمزية أمر ضروري لفهم علاقات القوة وكيف تنتج ولتفكيك إكراهات الهيمنة الذكورية وقصد صنع الذات الفاعلة.

ثم إنه ينبغي القول أيضا بأن النظام الرمزي لا يعني فقط النصوص المكتوبة، بل إنه يشمل كل ما يمكن أن يوضع تحت مظلة العلامة. فالمعمار مثلا، هو لغة/علامة، وفي هذا السياق نرى أن دراسات عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر بيير بورديو للعلاقة المتبادلة بين الفضاء المعماري وبين الأنوثة من جهة وبين هذه الأخيرة وبين الهيمنة الذكورية في المجتمع الأمازيغي الجزائري من جهة أخرى مفيدة، لأنها تمكنت من الكشف عن العنف الرمزي ودور العلامة والفضاء في تفريخه. ولتوضيح هذه النقطة أكثر، لا بد من القول بأن دراسة بورديو لخصائص المنزل الأمازيغي الجزائري وللأهداف المضمرة من وراء تقسيم بنية فضائه إلى مناطق للذكور وأخرى للنساء، تؤكد بوضوح أن المعمار/ الفضاء غير منفصل عن تقسيم الزمان واللغة، وبذلك تمكّن بورديو من فهم المعمار كعنصر مؤسس للذاتية وغير محايد، بل فقد أدرك أنّ التصميم الخاص بمعمار المنزل الأمازيغي لا يمكن فصله عن قيم الذكورة التي كرسها ذلك التصميم.

وبمعنى آخر فإن دراسة بورديو لخصائص المنزل البربري الجزائري قد جعلته يلاحظ وجود تطابق بين البنية المعمارية وبنية نسق الخطاب اللغوي المكتوب، ونمط الأدوار الاجتماعية المعطاة لكل من المرأة والرجل على نحو يضمن سيادة الذكر، ويسمي بورديو هذا النمط من المعمار-العلامة بالعالم مقلوبا.

وفي الوقت نفسه بيّن بورديو أن توزيع الفضاء إلى ثنائيات متضادة متطابق مع ثنائيات متضادة مثل: الرجل/الخارج - المرأة/الداخل، حيث أنه لاحظ أن هذه الثنائيات هي معادل لواقع تقسيم العمل بين المرأة والرجل أيضا.

ورغم أن نصر حامد أبوزيد يشير مرارا، في كتابه المذكور آنفا، إلى ثنائية تقسيم الفضاء إلى خارج للرجل، وإلى داخل للمرأة، لكنه لا يدرس كيف تبني العلامة الرمزية العمرانية الذاتية وعلاقات الهيمنة الذكورية، ثم إن نصر حامد أبوزيد يحلل نقديا إكراهات الحجاب باعتباره عاملا من عوامل تحجيم الفضاء النسوي محاججا بأن المنزل قد حوّل إلى حدّ لفضاء المرأة، ولكن المشكلة الأساسية في خطاب الأزمة حول المرأة تتطلب الانتباه إلى أن ثقافة الذكورة تنتج في مجتمعاتنا هذه الإكراهات وهذه الحدود ثم تصبح جزءا من الشخصية القاعدية واللاوعي الاجتماعي، أو لنقل جزءا من الرأسمال الرمزي السلبي.

> أبوزيد يلاحظ أن بنية اللغة العربية لا مجال فيها لما «يسمى الأسماء المحايدة»، أي الأسماء التي ليست مذكرة أو مؤنثة، كما هو الأمر في بعض اللغات الأجنبية

ولكن لا ينبغي تجاهل حقائق أخرى، وهي أن النساء في مجتمعاتنا يُعدن إنتاجها هذه الإكراهات والحدود، وغالبا دون وعي منهنّ، وتمثل هذه المشكلة إحدى العقبات الكبرى التي تحول دون تنظيف هذا المخزون من اللاوعي الثقافي السلبي الذي يعوق تحرّر المرأة والرجل معا في فضائنا الاجتماعي.